لذة وفائدة

لماذا تدخنون ؟

« ان اردت ان تتخلص من عادة مضرة ، فانظر نتائجها في غيرك ، يتبين لك فسادها ، وتشمئز نفسك ، اذ ذاك ، من اتباعها . »

هذا ما قاله احد اطباء الفرنسويين لمدخن مريض لم يكن له مقدرة على ترك التدخين .

وقد قال المدخن عن نفسه :

بعد سماعي هذا الكلام ، اخذت انظر بعين الازدراء الى افواه المدخنين وقد اعوجها الغليون ، والى شفاههم وقد فرقها السيكار ، والى شواربهم واصابعهم وقد حمرها دخان السيكارة . وكنت اشمئز عند ما اراهم ينفضون رماد سيكاراتهم في المنازل فيوسخون الطنافس والمقاعد ، او ينفخونه في الهواء فيفسدونه على الحاضرين . ثم يسعلون ويبصقون متضايقين ، شاكين من وجع الحلق والحنجرة . . . ولم ازل على هذه الحال حتى نفرت نفسي من الدخان ومن رائحته ، وصرت اتجنب كل من يحمل اثرا منه ، ضاحكاً من اولئك المغرورين الذين يضيعون مالهم ، وصحتهم ، ووقتهم ، دون فائدة .

ولم اقف عند هذا الحد . فاخذت ابحث عن الاسباب ، بل عن اشباه الاسباب والتعاليل ، التي يخترعها المدخنون دائماً ليبرروا تجاه انفسهم ، او تجاه ذويهم ، ادمانهم على تلك العادة السيئة . فخرجت من بيتي ، ذات صباح ، قاصداً احد المجتمعات . وبينا انا في الطريق ، رأيت عدة اولاد مختبئين وراء جدار عالٍ ، يدخنون ، ثم يحنون رؤوسهم لنفخ الدخان بين ثقوب الجدار . فوقفت قليلاً اتأمل بهذا المشهد ، ثم قلت :

— لماذا تدخنون ؟

فاجابوا بكل بساطة :

— لنفعل مثل الرجال الكبار . . .

وطرحت بعدئذ السؤال نفسه على الرجال « الكبار » ، فاجابوا بكل اسف :

— لان هذه العادة تمكنت منا ، منذ كنا صغارا .

وهكذا فان اكثر الناس يدخنون ولا يعرفون لماذا . . . يدخنون ليفعلوا مثل غيرهم . فهم يقلدون مقلدي نيكوت ، الذي كان يقلد ، في تدخينه ، احد البرابرة ؛ وهذا الاخير كان يقلد رجلا كان يدخن ليبهج معاصريه ، فيعجبوا بقدرته على اخراج الدخان من فيه وأنفه . . . عجب وتقليد ! هما قطبا المحور الذي تدور حوله البشرية .

سألت ، بعد ذلك ، سيدة كانت تحمل سيكارة بين اصبعين دقيقتين عن السبب الذي دفعها الى التدخين ؛ فانفرجت شفتاها بابتسامة لطيفة جمعت بين الزهو والحرية والبساطة ، ورنت بجفن الى خواتها الثمينة المتلألئة الاحجار . ففهمت انها تدخن لتظهر للناس تلك الثروة .

— وانتِ ، ايتها الآنسة ، لماذا تدخنين ؟

فنظرت اليّ الثانية باعجاب ، ورفعت فأ من العاج المذهب ، وقالت :

— بربك ، الا تراه جميلا ؟

فتبسمت قليلا لهذا الجواب . واذا بالثالثة تقول بصوت عالٍ :

— ان فم سيكارتي اغرب من هذا . انظر ، الا تجده بديعاً ؟

فنظرت . . . واذا بانبوب من البلور يلتوي بعضه على بعض كالحية . فهززت رأسي . وانت السيدة :

— انه جميل للغاية . وهو من آخر طراز مستعمل في باريس .

وخرجت من هذا المعرض مكتفياً بما رأيت وسمعت .

فذهبت الى شيخ منفرد لا ينقطع عن التدخين . ولم اكد اطأ عتبة الباب ، حتى سمعته يسعل ويبصق . فدخلت ، وسلمت . وسألته السؤال المعهود . فسعل ثانية ، وبصق ، ثم وضع غليونه باعتناء كلي على طنفة من

المخمل الاخضر ، وقال :

— اني ادخن لامتحن صلاحية هذه الغلايين التي يعملونها تارة من الخزف وطوراً من الخشب الاعتيادي . وكل هذه الانواع تفسد رائحة الدخان ، وتنغص عيش المدخن الخبير و...

ثم اخذ يشرح كيف يجب ان يكون الغليون ليحفظ رائحة التبغ .

فتركته يتكلم عن غلايينه ، وخرجت قاصداً احد الفلاسفة المدخنين ، فقال لي :

— اني ارى من خلال دخان السيكارة افكاراً صريحة ، وآراء واضحة ، لا اقدر على الحصول عليها بدون التدخين .

وقد كان احد الشعراء اقرّ لي بكل حرية قائلاً :

— عندما ادخن ، اسبح في عالم الخيال ، فتغيب عني المادّة وما تجرّه من حقائق واضحة صريحة . وهذا مما يساعدني على نظم الشعر الخيالي...

فتعجبت للتضاد بين التأويلين ، وتركتهما يهيم الاول في فلسفته الصريحة ، والثاني في شعره الغامض . وقصدت صديقاً من كبار المدخنين ، فرأيته منزوياً في حجرته شاحب اللون ، مصفرّ الاصابع ، وقد بحّ صوته من السعال المتواصل ، والسيكارة لا تزال بيده . فسلمت وجلست ، ثم القيت عليه سؤالي المعهود . فسكت ، واجابت امرأته متمعضة :

— انه ، على ما اظن ، يدخن لينقطع الى خيالاته . لانه كلما اشعل سيكارة ، انتقل من هذا العالم ، فاكلمه واحادثه دون جدوى . ولهذا ارى ان افكاره تسبح في الفضاء تابعة مجرى دخان سيكارته . وياللعظم مصيبتي اذا تناول الغليون . لان دخان هذه الآلة الجهنمية يذهب ، كما لا يخفى ، الى ابعد ما يذهب اليه دخان السيكارة .

فقلت ضاحكاً :

— فله درك من عالمة بامور النفس ، يا سيدتي .

فابتسمت ، وتناولت غليوناً كبيراً فقلبته مدة بين يديها ، وأرتني اياه قائلة :

— لا اشكّ ان هذا الفليون انكليزي . لان من يدخن فيه يلزمه وقت طويل . وقد شُغف به صديقك منذ اسبوع حتى اصبح لا يفارقه . فارجو منك ان تنصحه بالاقلاع عن هذه العادة المشؤومة.

فقلت : لقد اقلع الانكليز انفسهم عن التدخين بمثل هذا الفليون ، لانهم الآن شديدو الحاجة الى الشغل والعمل.

ثم تناولنا القهوة ، وتابعت الحديث :

— لا شكّ ان التدخين عادة مضرّة بكل الناس ، سواء كانوا كبارًا او صغارًا ، رجالًا او نساء...

قالت هذا ، وفتحت علبة دقيقة الشغل ، فاخرجت منها سيكارة نحيفة اشعلتها بكل هدوء.

فصحت بها منذهلًا :

— وانتِ ايضاً تدخنين !...

— وحقك ، اني لا ادخن الا لأطرد عني رائحة غليونه ... الا ترى ان دخان التبغ لا يُحتمل ؟

— الحق معك !

— تفضل اذًا هذه السيكارة.

فاشعلت السيكارة التي كانت تجربة هائلة ارجعتني حالًا الى عاداتي المشؤومة ، فعدت من كبار المدخنين . وما ذاك الّا لاطرد عني رائحة دخان التبغ ...